

سورة المعارج

هي مكية، وآياتها أربع وأربعون، نزلت بعد الحاقة، وهي كالنتمة لها في وصف القيامة وعذاب النار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢)
 مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ
 مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ
 بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِجِ (٨) وَتَكُونُ
 الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبْصَرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ
 لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِدِينِهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ
 الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا
 لَأَطَى (١٥) نَزَاعَةٌ لِلشَّوْمَى (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ
 فَأَوْعَى (١٨).

شرح المفردات

سأل سائل: أي دعا داع، من قولك: دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه، كما جاء في قوله: «يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمَنِينَ» ليس له دافع: أي إنه واقع لا محالة، والمعارج: واحدها معرج، وهو المصعد (أستسبر) كما قال: «وَمَعَارِجَ عَلَيَّهَا يَظْهَرُونَ»

والمراد بها النعم التي تكون درجات متفاوتة ، تصل إلى الخلق على مراتب مختلفة ،
والروح : هو جبريل عليه السلام ، والمهل : دوديء الزيت ، وهو ما يكون في قعر
الإناء منه ، والعمى : الصوف المصبوغ ألوانا ، والجحيم : القريب ، يبصرونهم : أى يبصر
الأحباء الأعماء ويرونهم ، يود : أى يتمنى ، والحجرم : المذنب ، وصاحبته : زوجته ،
وفصيلته : هى عشيرته ، تؤويه : أى تضمه ويأوى إليها ، كلاً : هى كلمة تفيد الزجر
عما يطلب ، لظى : هى النار ، والشوى : واحدا شواة ، وهى جلدة الرأس تنزعها
النار انزعاجا فتفرقها ثم تعود إلى ما كانت عليه ، تدعو : أى تجذب وتحضر ، تولى :
أى أعرض عن الطاعة ، جمع فأوعى : أى جمع المال فجعله فى وعاء .

المعنى الجملى

كان أهل مكة يقول بعضهم لبعض : إن محمداً يخوفنا بالعذاب ، فما هذا
العذاب ؟ ولئن هو ؟ وكان النضر بن الحرث ومن لَفَّ لَفَّهُ يقولون إنكارا واستهزاء :
« اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ
أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » فنزلت هذه الآيات .

الإيضاح

(سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع) أى طلب طالب عذابا
واقعا لاحتماله ، سواء طلب أم لم يطلب ، لأنه نازل بالكافرين فى الآخرة لا يدفعه
عنهم أحد ، فلماذا هم يطلبونه استهزاء ؟ .

(من الله ذى المعارج) أى ليس لذلك العذاب الصادر من الله دافع من جهته
إذا جاء وقته ، فإذا اقتضت الحكمة وقوعه امتنع ألا يفعله ، وهو ذو النعم التي تصل
إلى الناس على مراتب مختلفة ، ودرجات متفاوتة .

والخلاصة — إن العذاب الذي طلبه السائلون واستبطوه واقع لا محالة ، وهو سبحانه لم يفعل ذلك إلا للحكمة ، وهي وضعهم في الدرجات التي هم أهل لها بحسب استعدادهم ، وما دستوا به أنفسهم من سيء الأعمال والخطايا التي أحاطت بهم من كل صوب .

وقد نظم سبحانه العوالم فجعل منها مصاعد ، ومنها دركات ، فليكن هؤلاء في الدرجات ، وليكن المؤمنون والملائكة في الدرجات طبقا عن طبق على نظم ثابتة اقتضتها الحكمة والصلحة .

ثم بين مقدار ارتفاع تلك الدرجات فقال :

(تخرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) أى تصعد في تلك المعارج الملائكة وجبريل عليه السلام إلى مواضع لو أراد واحد من أهل الدنيا أن يصعد إليها لبق في ذلك الصعود خمسين ألف سنة ، لكنهم يصعدون إليها في الزمن القليل ، وليس المراد من ذكر الخمسين تحديد العدد ، بل المقصد أن مقام القدس الإلهي بعيد المدى عن مقام العباد ، فهم في المادة مغموسون ، وهناك عوالم أطف وأطف ، درجات بعضها فوق بعض ، وكل عالم أطف مما قبله ، وكلما لطف العالم العلو كان أشد قوة وهكذا : « وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » .

(فاصبر صبيرا جميلا) أى إذا سألوا استمجال العذاب على سبيل الاستمراء والتكذيب بالوحي ، وكان هذا يورث ضجرك أيها الرسول — فاصبر صبيرا جميلا بلا جزع ولا شكوى ، لأنه أمر محقق ، وكل آت قريب .

ثم بين أن هذا اليوم آتٍ لا شك فيه فقال :

(إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) أى إنهم يرون هذا اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة — بعيدا غير ممكن ، ونحن نراه قريبا هيئنا غير بعيد علينا ولا متعذر . ثم ذكر وقت حدوثه فقال :

(يوم تكون السماء كالمهل) أى إن العذاب واقع بالكافرين يوم تكون السماء

كأنها عكر الزيت ، والمراد أنها تكون واهية ضعيفة غير متماسكة .

(وتكون الجبال كالهن) أى وتكون الجبال هشة غير متلاحمة كأنها الصوف المنفوش إذا طيرته الريح ، روى عن الحسن : أنها تسير مع الرياح ثم تهبط ، ثم تصير كالهن ، ثم تهبط فتصير هباء مشورا .

(ولا يسأل حميم حميا) أى ولا يسأل قريب مشفق قريبا عن حاله ، ولا يكلمه لأبتلاء كل منهما بما يشغله كما جاء فى قوله : « وَإِنْ تَدَعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِذْعِهَا لَا يَعْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ » وقوله : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »

(يبصرونهم) من قولك بصرت بالشيء إذا أوضحته له حتى يبصره ، أى يتعارفون ثم يفرون بعضهم من بعض بعد ذلك .

ثم أرشد إلى هول ذلك اليوم فقال :

(يودّ المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبه وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه) أى يتمنى الكافر لو يفتدى أعز الناس إليه فدية ، لينجيه من ذلك العذاب ، فيؤد لو كان أبناؤه أو زوجته أو أخوه أو عشيرته التي تضمه إليها ، أو أهل الأرض جميعا فداء له ليخلص من ذلك العذاب . والخلاصة — يتمنى الكافر لو كان هؤلاء جميعا فى قبضة يده ليبتلهم فدية عن نفسه ، ثم ينجيه ذلك — هيات .

(كلا) أى لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض ، أو بأعز ما يحده من مال ولو بملء الأرض ذهباً ، أو بولده الذى كان حشاشة كبده فى الدنيا ، أو بزوجه وعشيرته .

(إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى) أى إنها النار الشديدة الحرارة التي تنزع جلدة الرأس وتفرقها ، ثم تعود إلى ما كانت عليه وأنشدوا قول الأعشى :

قالت فتيلة ^{مسيرة} ماله قد جلت شيباً شوائه

وهذه النار تجذب إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها ، وقدّر أنهم في الدنيا يعملون عملها ، من بين أهل الحشر ، فدسّوا أنفسهم إذ كذبوا بقلوبهم ، وتركوا العمل بجوارحهم ، وجمعوا المال بعضه على بعض وكنزوه ولم يؤدوا حق الله فيه ، وتساغوا به عن فرائضه من أوامر ونواهٍ .

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَأْمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرَمِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِقُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنْ أَيْتَمَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمَادُونُ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥)

شرح المفردات

الهلوع: سرعة الحزن عند مسّ المكروه، وسرعة المنع عند مسّ الخير ، من قولهم : ناقة هلوع : إذا كانت سريعة السير . وسأل محمد بن طاهر ثعلباً عن الهلوع فقال : قد فسره الله ، ولا يكون تفسير أبين من تفسيره سبحانه - يعني قوله : « إِذَا مَسَّهُ » الآية . والجزع : حزن يعرّف الإنسان عما هو بصدده ويقطعه عنه ،

والخير : المال والغنى ، حق معلوم : أى نصيب معين يوجبونه على أنفسهم تقرُّباً إلى الله وإشفاقاً على المحتاجين ، المحزوم : الفقير الذى لا يسأل الناس فيظن أنه غنى ، يصدقون بيوم الدين : أى يصدقون به تصديقاً يكون له الأثر في نفوسهم ، فيسخرونها ويسخرون أموالهم في طاعة الله ومنفعة الناس ، مشفقون : أى خائفون ، حافظون : أى كاتفون لها عن الحرام ، راعون : أى لا يتخلون بشيء من حقوقها :

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه هو ذو المعارج والدرجات العالية ، والنعم الوفيرة التى يسبقها على عباده الأخيار - أردف هذا بذكر المؤهلات التى توصل إلى تلك المراتب وتمعد عن ظلمة المادة التى تدخل النفوس فى النار الموقدة التى تنزع الشوى ، وبين أنها عشر خصال تفكّه من السلاسل التى تقيده بها غرائزه التى فطر عليها ، وعاداته التى ألقها وركن إليها ، وهى ترجع إلى شيئين : الحرص ، والجزع . وهذه الخصال هى :

- (١) الصلاة .
- (٢) المداومة عليها فى أوقاتها المعلومة .
- (٣) إقامتها على الوجه الأكل بحضور القلب ، والخشوع للرب ، ومراعاة سننها وآدابها .
- (٤) التصديق بيوم الجزاء بظهور أثر ذلك فى نفسه اعتقاداً وعملاً .
- (٥) إعطاء صدقات من أموالهم للفقراء والمحرومين .
- (٦) مراعاة العهود والمواثيق .
- (٧) أداء الأمانات إلى أهلها .
- (٨) حفظ فروجهم عن الحرام .
- (٩) أداء الشهادة على وجهها .
- (١٠) الخوف من عذاب الله .

الإيضاح

(إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً)
 أى إن الإنسان جبل على الهلع ، فهو قليل الصبر ، شديد الحرص ، فإذا افتقر
 أو مرض أخذ في الشكاة والجزع ، وإذا صار غنياً أو سلباً معاقى منع معروفه وشح
 بماله ، وما ذلك إلا لاشتغاله بأحواله الجسمانية العاجلة ، وقد كان من الواجب عليه
 أن يكون مشغولاً بأحوال الآخرة ، فإذا مرض أو افتقر رضى بما قسم له ، علماً بأن
 الله يفعل ما يشاء ، ويحكم بما يريد ، وإذا وجد المال والصحة صرفهما في طلب
 السعادة الأخروية ، وقد استثنى من هذه الحال من اتصفوا بالصفات الآتية :

(١) (إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون) أى إن الإنسان بطبعه
 متصف بصفات الذم ، خليق بالملق إلا من عصمهم الله ووقفهم ، فهداهم إلى الخير
 ويسر لهم أسبابه ، وهم المصلون الذين يحافظون على الصلوات في أوقاتها ، لا يشغلهم
 عنها شيء من الشواغل .

وفي هذا إيماء إلى فضيلة المداومة على العبادة ، أخرج بن حبان عن أبي سلمة
 قال : حدثتني عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خذوا من العمل
 ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا » ، قالت فكان أحب الأعمال إلى رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ما داوم عليه وإن قل ، وكان إذا صلى صلاة داوم عليها ، وقرأ
 أبو سلمة : الذين هم على صلاتهم دائمون .

(٢) (والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم) أى والذين في أموالهم
 نصيب معين لذوى الحاجات والبائسين . تقربا إلى الله وإشفاقاً على خلقه ، سواء
 سألوا واستجدوا ، أو لم يسألوا تمغفا منهم .

والمراد بهذا الحق المعلوم : ما يوظفه الرجل على نفسه ، فيؤديه كل جمعة أو كل
 شهر أو كلما جدت حاجة تدعو إلى بذل المسال ، كإغاثة فرد أو إغاثة أمة طراً عليها

ما يستدعى البذل لمصلحة هامة لها ، كالدفاع عن عدو أو دفع مجاعة أو ضرورة ملحة مفاجئة .

(٣) (والذين يصدقون بيوم الدين) أى والذين يؤمنون بالمعاد والحساب، فيعملون عمل من يرجو الثواب أو يخاف العقاب ؛ وتظهر آثار ذلك في أفعالهم وأقوالهم وسمعتاتهم ، فينبون إلى الله ويحبتون إليه .

(٤) (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) أى والذين هم خائفون وحيلون من تركهم للواجبات ، وإقدامهم على المحظورات ، ومن يدم به الخوف والإشفاق فيما كلف به يكن حذراً من التقصير ، حريصاً على القيام بما كلف به من علم وعمل .

ونحو الآية قوله : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ » وقوله : « الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ » .
ثم ذكر الداعي لهم إلى هذا الخوف فقال :

(إن عذاب ربهم غير مأمون) أى لا ينبغي لأحد أن يأمن عذاب الله وإن بالغ في الطاعة ، ومن ثم أثر عن السلف الصالح أنهم كانوا كثيرى الخوف والوجل كما يشعر بذلك قول بعضهم : ليت أمى لم تلدى . وقول آخر : ليمتنى شجرة تعفد ، إلى أشباه ذلك مما يعبر عن شديد الوجل والخشية .

(٥) (والذين هم لغروبهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) راجع تفسير هذا بتوسع في سورة المؤمنین

(٦) (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) أى إذا أؤتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يندروا .

(٧) (والذين هم بشهاداتهم قاننون) أى والذين يقومون بأداء الشهادة عند

الحكام ، ولا يكتمونها ولا يغيرونها ، والشهادة من جملة الأمانات ، وخصها بالذكر اعظم شأنها ، إذ بها تحيا الحقوق ، وبتركها تموت .

(٨) (والذين هم على صلاتهم يحافظون) أى والذين يحافظون على صلاتهم ، ويراعون شرائطها ، ويكملون فرائضها ؛ فيجتهدون قبل الدخول فيها في تفرغ القلب من الوسوس والالتفات إلى ماسوى الله ، مع حضور القلب حين القراءة ، وفهم مايتلى فيها من آى الذكر الحكيم .

ثم وعد هؤلاء بحسن المآل فقال :

(أولئك فى جنات مكرمون) أى هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال فى بساتين يكرمون فيها بأنواع اللذات والمسرات ، وإلى ذلك أشار الحديث « فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

فَمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الَّتِيْمِيْنَ وَعَنِ الشَّمَالِ
عَزِيْنَ (٣٧) اَيَّطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ اَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيْمٍ (٣٨) كَلَّا
اِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَا اُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ اِنَّا
لَتَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى اَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِيْنَ (٤١) فَذَرْنَهُمْ
يُحْوِضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ
مِنَ الْجِبَاتِ يِرَاعًا كَانَهُمْ اِلَى نُصْبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً اَبْصَارُهُمْ
تَرَاهُمْ ذَلَّةً ذَلَّةً ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)

شرح المفردات

قَبْلَكَ : أى فى الجهة التى تليك ، مهطعين : أى مسرعين نحوك ، مادى أعناقهم إليك ، مقبلين بأبصارهم عليك ، ليظفروا بما يحملونه هزوا ، وأنشدوا :
 بمكة أهلها ولقد أراهمُ إليه مهطعين إلى السماع
 عزيز : أى فرقا شتى حلقًا حلقًا ، قال عبيد بن الأبرص .
 فجاءوا يهزّعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا
 واحدم عزة ، وأصلها عزوة ، لأن كل فرقة تعزى وتنسب إلى غير من تعزى إليه الأخرى ، بمسوقين : أى بمغلوبين ، والأجداث : القبور ، واحدها جدّث ، والسراع : واحدم سريع ، والنصب (بضمّتين) كل شىء منصوب كالعلم والراية وكذا ما ينصب لعبادة ، وهو المراد هنا ، ويوفضون : أى يسرعون ، خاشمة أبصارهم : أى ذليلة ، ترهقهم : أى تنفّشهم .

المعنى الجملى

بعد أن وعد المؤمنين بجنات النعيم مع الكرامة والإجلال — أردف ذلك بذكر أحوال الكافرين مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأبان لهم خطأهم فيما يرجون من جنات النعيم على ما هم عليه من كفر وجحود ، ثم توعدهم بالهلاك ، وإن استطع أحد دفعه عنهم ، ثم أمر رسوله أن يدعهم وشأنهم حتى يوم البعث ، يوم يخرجون من قبورهم مسرعين كأنهم ذاهبون إلى معبوداتهم الباطلة من الأصنام والأوثان ، (وقد كان من دأبهم أن يسرعوا حين الذهاب إليها) وهم فى هذا اليوم تكون أبصارهم ذليلة ، وترهق وجوههم قفرة ، لما تحقّقوا من عذاب لا منجاة لهم منه ، وقد أوعدوه فى الدنيا فكذبوا به .

روى : أنه عليه السلام كان يصلى عند الكعبة ويقرأ القرآن ، وكان المشركون يجتمعون حوله حلقاً حلقاً وفرقاً فرقاً يستمعون ويستهنئون ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلن قبلهم ، فنزلت هذه الآيات .

الإيضاح

(فما للذين كفروا قبلك مهطعين . عن اليمين وعن الشمال عزين) أى فما بالهم يسرعون إليك ، ويجلسون حوالبك ، عن يمينك وعن شمالك ، جماعات متفرقة ، نافرين منك ، لا يلتفتون إلى ما تلقى عليهم من رحمة الله وهدى ، ونصحه وإرشاده ، وما فيه سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

ونحو الآية قوله : « قَالَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ؟ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ .

فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » .

أخرج مسلم وغيره عن جابر قال : دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ونحن حلق متفرقون ، فقال : « ماى أراكم عزين ، ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ قالوا : وكيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال : يتون الصفوف الاول و يتراصون فى الصف » وقد كانت عادتهم فى الجاهلية أن يجلسوا حلقاً مجتمعين . قال شاعرهم :

ترانا عنده والليل داجٍ على أبوابه حلقاً عزيناً

ثم أناسهم من نيلهم للسعادة التى يفوز بها من يستمعون القول فيتبعون أحسنه فقال :

(أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم ؟ كلا) أى أيطمع هؤلاء وهم

نافرون من الرسول صلى الله عليه وسلم ، معرضون عن سماع الحق بأن يدخلوا جنتى كما يدخلها المؤمنون المحبتون الذين يدعون ربهم خوفاً وطمئناً ؟ كلا لا يطمع لهم فى ذلك مع ما هم عليه .

ثم ذكر السبب في تبييضهم منها فقال :

(إنا خلقناهم مما يعلمون) أى إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون ، وهو تكميل النفس بالإيمان والطاعة ؛ فمن لم يكملها بذلك فهو بمنزلة من أن يتبوء مقبواً الذين أخلصوا لله وحده ، وبعثت نفوسهم عن دنس الشرك والمعاصي .

ثم توعدهم بأنهم إن لم يثوبوا إلى رشدكم أهلكمهم واستبدل بهم قوماً غيرهم خيراً منهم فقال :

(فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون . على أن نبذل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين) أى أقسم برب الكواكب ومشارقها ومغاربها ، إنا لقادرون على أن نخلق أمثالهم يستمعون دعوة الداعى ونصح الناصح ، ونهلك هؤلاء ، وإن يعجزنا ذلك ، لكن مشيئتنا اقتضت تأخير عقوبتهم .

والخلاصة — إن هؤلاء المشركين فى تناقض واضطراب فى الرأى ، فكيف ينكرون البعث ثم يطمعون فى دخول الجنة ، وكيف ينكرون الخالق وقد خلقهم أولاً مما يعلمون ، وهو قادر على خلق مثلهم ثانياً .

وفى هذا تهكم بهم وتنبية إلى تناقضهم فى كلامهم ، فإن الاستهزاء بالساعة ودخول الجنة مما لا يقبله إلا من عنده دخل فى العقل ، وبجانفة لصواب الرأى .

ثم سأل رسوله عما يقولون ويفعلون فقال :

(فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يعدون) أى دعهم فى تكذيبهم وعنادهم إلى يوم البعث ، وحينئذ يعلمون عاقبة وبالهم ، ويدوقون شديد نكالهم ، حين يُعرضون للحساب والجزاء ، يوم تجزى كل نفس بما عملت ، لا شافع ولا نصير ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ثم فصل أحوالهم فى هذا اليوم فقال :

(يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) أى يوم يخرجون من قبورهم إذا دعاهم الداعى لموقف الحساب — سراعا

يسابق بعضهم بعضا ، كما كانوا فى الدنيا يهرولون إلى النَّصْبِ إذا عاينوه يبتدون
أبيهم يستلمه قبل - مع خشوع الأبصار وذلتها لهول ما تحققوا من العذاب ، تملو وجوههم
القترة ، لما أصابهم من السَّكَّابة والحزن .

ثم ذكر أن ذلك العذاب الذى وقعوا فيه ، كانوا قد أُنذِرُوا به ،
ولم يأتهم بغتة فقال :

(ذلك اليوم الذى كانوا يعدون) أى ذلك اليوم وما فيه من أهوال عظام
كانوا قد أُنذِرُوا فى الدنيا أنهم ملاقوه وكانوا به يكذبون ، فلا عذر لهم فيما سيموا
به من سوء العذاب .

خلاصة ما حوته السورة الكريمة من أغراض ومقاصد :

- (١) وصف يوم القيامة وأهواله .
- (٢) وصف النار وعذابها .
- (٣) صفات الإنسان التى أوجبت له الجحيم ، وكيف يجتهد لإزالة ما به من
النقص حتى يرتقى إلى المعارج ، ويخرج من عالم المادة .
- (٤) وعيد الكافرين على ما يلاقونه فى ذلك اليوم .